رسائل تلّغرافيّة
(٢٢)

آياتٌ تَحْتَاجُ إلى بَيَانٍ
«الآيةُ الرابعة»

كتبه
الدكتور ابن الكيَّال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للَّه وحده، والصلاة والسلام علىٰ من لا نبيّ بعده ﷺ، **أما بعد**:

فهذه بفضل اللَّه ومَنِّه والذي لا تتم الصالحات إلا به هي الآية الرابعة في سلسلة: «**آيات تحتاج إلىٰ بيان**»، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ [الكهف: ٢٩]، وظاهر هذه الآية بَيِّنٌ في أن الأمر علىٰ الاختيار، وهذا مُشكل يحتاج إلىٰ بيان وتوضيح.

قال الإمام المُفسر أبو عبد اللَّه القرطبيّ في كتابه «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٢٨٤-٢٨٥):

«قوله تعالىٰ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾: ﴿ٱلْحَقُّ﴾: رفع علىٰ خبر الابتداء المضمر؛ أي: قل هو الحق، وقيل: هو رفع علىٰ الابتداء، وخبره في قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ ۖ﴾، ومعنىٰ الآية:

قل يا محمد لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا: أيها الناس من ربِّكم الحق، فإليه التوفيق والخِذْلان، وبيده الهُدىٰ والضلال، يهدي من يشاء فيؤمن، ويضل من يشاء فيكفر، ليس إليَّ مِنْ ذلك شيء، فاللَّه يؤتي الحق من يشاء وإنْ كان ضعيفًا، ويحرمه من يشاء، وإن كان قويًّا غَنِيًّا، ولست بطارد المؤمنين لهواكم؛ فإن شئتم فآمنوا، وإن شئتم فاكفروا، وليس هذا بترخيص وتخيير بين الإيمان والكفر، وإنما هو وعيد وتهديد؛ أي: إن كفرتم فقد أعدّ لكم النار، وإنْ آمنتم فلكم الجنة.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ أي: أعددنا ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: للكافرين الجاحدين ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩]، قال الجوهري: السُّرادِقُ: واحد السُّرادقات التي تمتدّ فوق صحن الدار، وكل بيت من كُرْسف [يعني: من القُطن] فهو سُرادِق، وهو سورها، كما قال ابن الأعرابي، وقال ابن عباس: حائط من نار، وقال القُتَبِيّ: السرادق الحُجْرة التي تكون حول الفسطاط». اهـ

وقال الشنقيطيّ في «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» (٤/ ٦٨):

«ظاهر هذه الآية بحسب الوضع اللغويّ -التخيير بين الكفر والإيمان- ولكن المراد من الآية الكريمة ليس هو التخيير، وإنما المراد بها التهديد والتخويف، والتهديد بمثل هذه الصيغة التي ظاهرها التخيير أسلوب من أساليب اللغة العربية، والدليل من القرآن العظيم علىٰ أن المراد في الآية التهديد والتخويف: أنه أتبع ذلك بقوله -يعني: بقية نفس الآية-: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]، وهذا أصرح دليل علىٰ أنّ المراد التهديد والتخويف؛ إذْ لو كان التخيير علىٰ بابه [-يعني: هو المراد هنا-]؛ لما توعّد فاعل أحد الطرفين [يعني: الإيمان أو الكفر] المخيّر بينهما؛ بهذا العذاب الأليم، وهذا واضح كما ترىٰ». اهـ

قلت: والذي يؤكد ذلك: أن عامة الأصوليين والمفسرين وأهل التوحيد بإجماعهم جعلوا هذه الآية علىٰ معنىٰ التهديد والوعيد والزجر والتخويف؛ لأنها لا تحتمل إلا هذا، وفي هذا السياق يكون كلام الأصوليين في قواعد أصول الفقه، من خلال قاعدة صرف الظاهر عن ظاهره لدلالة السياق البيّن الواضح؛ فإنّ دلالة السياق من الصوارف التي تصرف الظاهر عن ظاهره إلىٰ باطن غير هذا الظاهر، وقد فصّلت ذلك في كتابي: «**أدلة الأحكام بين ظاهر النص واستنباط المعنىٰ**

الفقهي المقصود، وضابط ذلك وأثره علىٰ الأحكام الشرعية، وهو علىٰ موقعي «بي دي إف»، وهو كتاب مهم إن شاء اللَّه.

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، والمراد الذليل الحقير لأنه سبحانه يتكلم في سياق الآيات علىٰ أهل النار كما قال تعالىٰ: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٧- ٤٩].

قال القرطبيّ في «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ١١١) عند آيات سورة الدخان:

«هو علىٰ معنىٰ الاستخفاف والتوبيخ والاستهزاء والإهانة والتنقيص، أي قل له: إنك أنت الذليل المُهان، وهو كما قال قوم شعيب لشعيب عليه السلام: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] يعنون السفيه الجاهل، وهذا قول سعيد بن جُبير». اهـ

قلت: وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الزمر: ٧].

وقد بيّنت في كتابي الكبير في أصول الفقه «**ما قلّ ودلّ في أصول الفقه للمستدلّ**» (**٣/ ٨٥٢ وما بعدها**) **في المسألة (١٤٣) (بيان استعمال صيغة (افعل) لغير الوجوب لوجود القرائن بهذا الاستعمال)، ومنها قوله تعالىٰ:** ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، وقوله: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨]، وقوله: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠]، وكانت صيغة الأمر للتهديد كقوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم﴾ [الإسراء: ٦٤]، وهو قول لإبليس.

قال شيخ المفسرين ابن جرير في تفسيره «جامع البيان في تأويل القرآن» (٢٤/ ١٢٣):

«وقوله تعالىٰ: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت: ٤٠]، وهذا أيضًا وعيد لهم من اللَّه خرج مخرج الأمر، وكذلك كان مجاهد يقول:

[٣٠٦٠٥] حدثنا . . . عن مجاهد: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ قال: هذا وعيد». اهـ

وفي نفس هذا السياق قال السعديّ في «تفسيره» (ص٤٧٥، ٤٧٦):

«أي: قل يا محمد: هذا الحق من ربكم؛ أي: قد تبيّن الهدىٰ من الضلال والرشد من الغيّ، وصفات أهل السعادة، وصفات أهل الشقاوة؛ وذلك بما بيّنه اللَّه علىٰ لسان رسوله، فإذا بان واتَّضح، ولم يبق فيه شبهة ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾؛ أي: لم يبق إلّا سلوك أحد الطريقين: بسحب توفيق العبد، وعدم توفيقه، وقد أعطاه اللَّه مشيئة بها يقدر علىٰ الإيمان والكفر، والخير والشّر، فمن آمن فقد وُفِّق للصواب، ومن كَفَر فقد قامت عليه الحجّة، وليس بمكره علىٰ الإيمان؛ كما قال تعالىٰ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وليس في قوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ الإذن في كلا الأمرين، وإنما ذلك تهديد ووعيد لمن اختار الكفر بعد البيان التَّام». اهـ

قلت: هذا ما كان من كلام أهل العلم في هذه الآية الكريمة التي أخذها بعض من يتبع المتشابه منه ابتغاء الفتنة والضلال والزيغ والهوىٰ وابتغاء تأويله، وذلك للبيان لمراد الآية، وأفضل ما يُفسّر القرآن بالقرآن وبسنة النبيّ ﷺ وكلام أهل العلم وهم صحابة رسول اللَّه ﷺ ثمّ من تبعهم بإحسان من بعدهم.

ومن أهم ما يُفسّر به كتاب اللَّه المنهجيّة الأصولية الاستدلالية التي هي مفاتيح العلم من معرفة الراجح من المرجوح، والقدرة علىٰ دفع التعارض بين الأدلة من

الكتاب والسنة، ومنظومة العام والخاص، والمطلق والمقيد، والمُجْمَل والمُبيَّن، والناسخ والمنسوخ، وغير ذلك من منظومة أصول الفقه عمود الخيمة في تحقيق مسائل الشريعة.

والحمد للَّه أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، وصلىٰ اللَّه علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

بلّغه

الباحث الشرعي الدكتور عيد بن أبي السعود الكيَّال

دكتوراه من كلية الشريعة الإسلامية

جامعة الأزهر بالقاهرة